أخرى منبثة نحو الشرق تنحدر إلى المدينة في دعة وفتور وتكسر جميل، وإن هناك لخطًّا عريضًا من الماء أشد روعة وجمالًا وإثارة للسحر في القلوب من هذا الخط الضئيل النحيل يسمونه بحرًا وما هو بالبحر، وإنما هي قناة لا يصح أن تذكر مع النيل، وإن هناك لدورًا شاهقة واسعة مترفة تحيط بها الحدائق البديعة، وتلذ الإقامة فيها والحياة بين غرفاتها وحجراتها واللهو بين ما يحيط بها من الأشجار والأزهار، وإن هناك لفتاة جميلة وسيمة رقيقة هي التي أحن إلى لقائها وأتحرق على تجديد العهد بها. وماذا أصنع في تلك القرية، وأي حياة تُهيَّأ لي فيها! كلها شظفٌ وخشونة، وكلها جهلٌ وغفلة، وكلها رجوع إلى ذلك الطور الأبله الذي جعلت أخرج منه قليلًا قليلًا حتى امتزت من أمي وأختي أشعر بأني أحسن منهما فهمًا للحياة، وأصدق منهما حكمًا على الأشياء، وأشد منهما صبرًا على الخطوب، وأمهر منهما في التخلص من الشدائد والكارثات. ألست أدنى منهما إلى الطفولة، وأجدر منهما أن أكون غرَّة غافلة؟ ومع ذلك فإني أنظر إليهما كما تنظر الأم إلى صبيتين ضعيفتين تحتاجان إلى الحماية والحب وإلى العطف والعون!

كذلك كنت متناقضة أشد التناقض، مختلفة أشدَّ الاختلاف، أزين لأختي ما أبغضه أشد البغض، وأمنِّي نفسي بما ليس إليه من سبيل، وكثيرًا ما خطر لي خاطر فلم أقف عنده لأنه كان يظهر لي سخيفًا مستحيلًا؛ كثيرًا ما خطر لي أن أتغفل من حولي إذا تقدَّم الليل، وأن أنسلَّ من الدار وأن أهيم على وجهي نحو الشرق منسابة بين المزارع والحقول والقرى كما تنساب الحيَّة الدقيقة، حتى أبلغ المدينة مع الصبح أو مع الضحى، وإذا أنا حيث أحب أن أكون.

لم أقف عند هذا الخاطر الذي كان يمر بنفسي من حين إلى حين مرًّا سريعًا فينفذ منها كما ينفذ السهم من الهدف؛ لأن الاستجابة له لم تكن ميسورة، وكيف الانسلال من الدار والأحراس عليها قيام! وكيف الانسياب في الريف؟! وماذا تصنع فتاة وحيدة في ضوء النهار فضلًا عن ظلمة الليل! وكيف لي بترك هاتين البائستين تحملان وحدهما ثقل الأحداث والخطوب؟

أقيمي، أقيمي يا آمنة! وانسي نفسك ولذتك وراحتك، وانظري إلى هذه الفتاة الجالسة أمامك، إن ذهولها ليمزق القلب، وإن شحوب وجهها ليذيب النفس، وإن هذه الدموع التي أخذت تنحدر من عينيها في سكون وصمت لخليقة أن تصرفك عن كل تفكير إلا فيها، وعن كل عناية إلا بها، ألحِّي ألحِّي يا آمنة في تزيين الرحيل، وفي التحدث عما سنجد في القرية من أمن، وبما سنستقبل فيها من هدوء واستمتاع بالحياة الراضية، لا نخدم أحدًا وقد يخدمنا الناس.